

مصطفى لطفي المنفلوطي

مصدر هذه المادة:







بسم الله الرحمن الرحيم

ما أكثر أيام الحياة وما أقلها؟

لم أعش من تلك الأيام الطوال التي عشتها في هذا العالم إلا عاما واحدا. مر بي كما يمر النجم الدهري في سماء الدنيا ليلة واحدة، ثم لا يراه الناس بعد ذلك.

قضيت الشطر الأول من حياتي أفتش عن صديق ينظر إلى أصدقائه بعين غير العين التي ينظر بها التاجر إلى سلعته، والزارع إلى زرعه، فأعوزني ذلك حتى عرفت "فلانا" منذ ثماني عشرة عاماً، فعرفت امرءاً ما شئت أن أرى خلة من خلال الخير والمعروف في ثياب رجل إلا وجدتها فيه، ولا تخيلت صورة من صور الكمال الإنساني في وجه إنسان إلا أضاءت لي في وجهه، فجلت مكانته عندي ونزل من نفسي منزلة لم ينزلها أحد من قبله، وصفت كأس الود بيني وبينه لا يكدرها علينا مكدر، حتى عرض إليّ من حوادث الدهر ما أزعجني من مستقري، فهجرت القاهرة إلى مسقط رأسي غير آسف على شيء فيها إلا على فراق ذلك الصديق الكريم، فتراسلنا حقبة من الزمن، ثم فترت عني كتبه، ثم انقطعت، فحزنت لذلك حزناً شديداً وذهبت بي الظنون في شأنه كل مذهب، إلا أن ارتاب في صدقه ووفائه، وكنت كلما هممت بالمسير إليه لتعرف حاله، قعد بي عن ذلك هم كان يقعدني عن كل شأن حتى شأن نفسي. فلم أعد إلى القاهرة إلا بعد أعوام، فكان أول همي يوم هبطت أرضها أن أراه، فذهبت إلى منزله في الساعة الأولى من

الليل، فرأيت ما لا تزال حسرته متصلة بقلبي حتى اليوم.

تركت هذا المنزل فردوساً صغيراً من فراديس الجنان، تتــراءى فيه السعادة في ألوانها المختلفة، وتترقرق وجــوه ســاكنيه بشــراً وسروراً، ثم زرته اليوم فخيل إلي أنني أمام مقبرة موحشة لا يهتف فيها صوت ولا يتراءى في جوانبها شبح ولا يلمــع في أرجائهــا مصباح؛ فظننت أني أخطأت المنزل الذي أريده، أو أنني بين يــدي منزل مهجور، حتى سمعت بكاء طفل صغير، ولمحت في بعض النوافذ نورا ضعيفا، فمشيت إلى الباب، فطرقته، فلم يجبني أحد، فطرقتــه أخرى فلمحت من خصاصه نورا مقبلا، ثم لم يلبث أن انفــرج لي عن وجه غلام صغير في أسمال بالية يحمل في يده مصباحا ضــئيلا، فتأملته على ضوء المصباح فرأيت في وجهه صورة أبيه، فعرفت أنه ذلك الطفل الجميل المدلل الذي كان بالأمس زهرة هذا المنزل وبدر سمائه، فسألته عن أبيه فأشار إلي بالدخول ومشى أمامي بمصــباحه حتى وصل بي إلى قاعة شعثاء مغبرة بالية المقاعد والأستار، ولــولا نقوش لاحت لي في بعض جدرانها –كباقي الوشم في ظاهر اليــد– ما عرفت أنها القاعة التي قضينا فيها ليالي السعادة والهناء اثني عشر هلالا، ثم جرى بيني وبين الغلام حديث قصير عرف فيه من أنــا، وعرفت أن أباه لم يعد إلى المنزل حتى الساعة، وأنه عما قليل عائد، ثم تركني ومضى، وما لبث إلا قليلا حتى عاد يقول لي: إن والدتــه تريد أن تحدثني حديثا يتعلق بأبيه، فخفق قلــبي خفقــة الرعــب والخوف، وأحسست بشر لا أعرف مأتاه، ثم التفت، فإذا امــرأة برداء أسود واقفة على عتبة الباب، فحيتني فحييتها، ثم قالــت لي:

هل علمت ما صنع الدهر بفلان من بعدك؟ قلت: لا، فهذا أول يوم هبطت فيه هذا البلد بعد ما فارقته سبعة أعوام. قالــت: ليتــك لم تفارقه، فقد كنت عصمته التي يعتصم بها وحماه من غوائل الدهر، وشروره، [بعد الله عز وجل] فما هو إلا أن فارقته حتى أحاطت به زمرة من زمر الشيطان، وكان فتى كما تعلمه غريرا ساذجا فمـا زالت تغريه بالشر وتزين له منه ما يزين الشيطان للإنسان، حـتى سقط فيه فسقطنا جميعا في هذا الشقاء الذي تراه، قلت: وأي شـر تريدين يا سيدتي؟ ومن هم الذين أحاطوا به فأسـقطوه؟: قالــت: سأقص عليك كل شيء، فاستمع لما أقول:

ما زال الرجل بخير حتى اتصل بفلان رئيس ديوانه، وعلقــت حباله بحباله، وأصبح من خاصته الذين لا يفارقون مجلسه حتى كان، ولا تزال نعالهم خافقة وراءه في غدواته وروحاته، فاســتحال مــن ذلك اليوم أمره، وتنكرت صورة أخلاقه وأصبح منقطعا عن أهلــه وأولاده لا يراهم إلا الفينة بعد الفينة، وعن منزله لا يــزروه إلا في أخريات الليالي؛ ولقد اغتبطت في مبدأ الأمر بتلك الحظوة التي نالها عند ذلك الرئيس والمنزلة التي نالها من نفسه، ورجوت له من ورائها خيرا كثيرا مغتفرة في سبيل ذلك ما كنت أشعر به مــن الوحشــة والألم لانقطاعه عني وإغفاله أمري وأمر أولاده، حتى عاد في ليلــة من الليالي شاكيا متألما يكابد غصصا شديدا وآلاما جساما فدنوت منه فشممت من فمه رائحة الخمر، فعلمت كل شيء.

علمت أن ذلك الرئيس العظيم هو قدوة مرؤوسيه في الخير إن سلك طريق الخير، والشر إن سلك طريق الشر، قاد زوجي الفــتى

المسكين إلى شر الطريقين، وسلك به أسوأ السبيلين، وإنه ما كـــان يتخذه صديقا كما زعم، بل نديما على الشراب، فتوسلت إليه بكل عزيز عليه، وسكبت على يديه من الدموع كل مـــا تســـتطيع أن تسكبه عين، رجاء أن يعود إلى حياته الأولى التي كان يحياها سعيدا بين أهله وأولاده، فما أجديت عليه شيئا، ثم علمت بعد ذلـــك أن اليد التي ساقته إلى الشراب قد ساقته إلى اللعب، فلم أعجب لذلك، لأني أعلم أن طريق الشر واحدة، فمن وقف على رأسها لا بـــد أن ينحدر فيها حتى يصل إلى نهايتها، فأصبح ذلك الفتى النبيل الشريف —الذي يعف بالأمس عن شرب الدواء إذا أشتم فيه رائحة النبيـــذ، ويستحي أن يجلس في مجتمع يجلس فيه قوم شاربون– سكيرا مقامرا مستهترا لا يحتشم، ولا يتلوم، ولا يتقي عارا ولا مأثمـــا، وأصـــبح ذلك الأب الرحيم والزوج الكريم الذي كان يضن بأولاده أن يعلق بهم الذر، وبزوجه أن يمسها أدنى مكروه، أباً قاسياً وزوجاً سليطاً، يضرب أولاده كلما دنوا منه، ويشتم زوجته وينتهرها كلما رآها، وأصبح ذلك الرجل الغيور الضنين بعرضه وشرفه لا يبالي أن يعود إلى المنزل في بعض الليالي في جمع من عشرائه الأشرار، فيصعد بهم الطبقة التي أنام فيها أنا وأولادي فيجلسون في بعض غرفهـــا، ولا يزالون يشربون ويقصفون حتى يذهب بعقولهم، فيهتاجوا بعضـــهم وراء بعض في الأبهاء والحجرات حتى يلجوا علي باب غرفتي،وربما حدق بعضهم في وجهي، أو حاول نزع خماري على مـــرأى مـــن زوجي ومسمع، فلا يقول شيئا ولا يستنكر أمرا، فأفر بين أيديهم من مكان إلى مكان، وربما فررت من المنزل جميعه وخرجت بـــلا

إزار، ولا خمار، غير إزار الظلام وخماره، حتى أصل إلى بيت جارة من جاراتي، فأقضي عندهم بقية الليل.

وهنا تغيرت نغمت صوتها فأمسكت عن الحديث وأطرقـــت برأسها، فعلمت أنها تبكي فبكيت بيني وبين نفســـي لبكائهـــا، ثم رفعت رأسها، وعادت إلى حديثها تقول: وما هي إلا أعوام قلائل حتى أنفق جميع ما كان في يده من المال فكان لا بد له أن يستدين ففعل، فأثقله الدين فرهن، فعجز عن الوفاء فباع جميع ما يملك حتى هذا البيت الذي نسكنه، ولم يبق في يده غير راتبه الشهري الصغير، بل لم يبق في يده شيء حتى راتبه؛ لأنه لا يملكه إلا ساعة من نهار، ثم هو بعد ذلك ملك للدائنين، أو غنيمة للمقامرين.

هذا ما صنعت يد الدهر به، أما ما صنعت بي وبأولادي، فقد مر على آخر حلية بعتها من حلاي عام كامل، وها هي حوانيـــت المرابين والمسترهنين ملأى بملابسي، وأدوات بيتي وأثاثه، ولـــو لا رجل من ذوي قرباي رقيق الحال يعود علي من حـــين إلى حـــين بالنزر القليل مما يستله من أشداق عياله لهلكـــت وهلـــك أولادي جوعا.

فلعلك تستطيع يا سيدي أن تكون عونا لي على هذا الرجـــل المسكين، فتنقذه من شقائه وبلائه بما ترى له في ذلك الرأي الصالح، وأحسب أن تقدر منه — للمنزلة التي تنزلها من نفسه– على ما عجز عنه الناس جميعا، فإن فعلت أحسنت إليه وإلينا إحساناً لا تنســـى يدك فيه حتى الموت.

ثم حيتني ومضت لسبيلها، فسألت الغلام عن الساعة التي أستطيع أن أرى أباه فيها في المنزل، فقال: إنك تراه في الصباح قبل ذهابه إلى الديوان، فانصرفت لشأني، وقد أضمرت بين جنبي لوعة ما زالت تقيمني وتقعدني وتذود عن عيني سنة الكرى حتى انقضى الليل، وما كاد ينقضي.

ثم عدت في صباح اليوم الثاني لأرى ذلك الصديق القديم الذي كنت بالأمس أسعد الناس به، ولا أعلم ما مصير أمري معه بعد ذلك، وفي نفسي من القلق والاضطراب ما يكون في نفس الذاهب إلى ميدان سباق قد خاطر فيه بجميع ما يمتلك؛ فهو لا يعلم أيكون بعد ساع أسعد الناس أم أشقاهم؟

الآن عرفت أن الوجوه مرايا النفوس تضيء بضيائها وتظلم بظلامها فقد فارقت الرجل منذ سبع سنوات فأنستني الأيام صورته، ولم يبق في ذاكرتي منها إلا ذلك الضياء اللامع، ضياء الفضيلة والشرف الذي كان يتلألأ فيها تلألؤ نور الشمس في صفحتها، فلما رأيته الآن، ولم أر أمام عيني تلك الغلالة البيضاء التي كنت أعرفها، خيل إلي أنني أرى صورة غير الصورة الماضية، ورجلا غير الذي كنت أعرفه من قبل.

لم أر أمامي ذلك الفتى الجميل الوضاح الذي كان كل منبت شعرة في وجهه فما ضاحكا تموج فيه ابتسامة لامعة؛ بل رأيت مكانه رجلا شقيا منكوبا قد لبي الهرم قبل أوانه وأوفى على الستين قبل أن يسلخ الثلاثين، فاسترخى حاجباه وثقلت أجفانه، وجمدت

نظراته، وهدل عارضاه، وتجعد جبينه، استشرف عاتقــاه وهــوى رأسه بينهما هوية بين عاتقي الأحدب، فكان أول ما قلت له: لقد تغير فيك كل شيء يا صديقي حتى صورتك! وكأنمــا ألم بمــا في نفسي، وعرف أني قد علمت من أمره كل شيء فــأطرق برأســه إطراق من يرى أن باطن الأرض خير له من ظهرها، ولم يقل شيئا، فدنوت منه حتى وضعت يدي على عاتقه وقلت له:

والله ما أدري ماذا أقول لك؟ أأعظك، وقد كنــت واعظــي بالأمس، ونجم هداي الذي أستنير به في ظلمات حياتي؟ أم أرشدك إلى ما أوجب عليك في نفسك، وفي أهلك؟ ولا أعرف شيئا أنــت تجهله، ولا تصل يدي إلى عبرة تقصر يدك عن نيلها، أم أسترحمك لأطفالك الضعفاء وزوجتك البائسة المسكينة التي لا عضد لهــا في الحياة، ولا معين سواك؟ وأنت صاحب القلب الرحيم الذي طالمــا خفق بالبعداء، فأحرى أن يخفق رحمه بالأقرباء!.

إن هذه الحياة التي تحياها يا سيدي إنما يلجــأ إليهــا الهمــل العاطلون الذي لا يصلحون لعمل من الأعمال ليتواروا فيها عــن أعين الناس حياء وخجلا، حتى يأتيهم الموت فينقذهم من عــارهم وشقائهم، وما أنت بواحد منهم!.

إنك تمشي يا سيدي في طريق القبر، وما أنت بناقم على الدنيا ولا بمتبرم بها، فما رغبتك في الخروج منها خروج اليائس المنتحــر! عذرتك لو أن ما ربحت في حياتك الثانية يقم لك مقام ما خسرت من حياتك الأولى. ولكنك تعلم أنك كنت غنيا فأصبحت فقــيرا،

وصحيحا فأصبحت سقيما، وشريفا فأصبحت وضيعا؛ فإن كنت ترى بعد ذلك أنك سعيد فقد خلت رقعة الأرض من الأشقياء.

إن كل ما يعنيك من حياتك هذه أن تطلب فيها الموت؛ فاطلبه في جرعة سم تشربها دفعة واحدة؛ فذلك خير لك من هذا الموت المتقطع الذي يكثر فيه عذابك وألمك، وتعظم فيه آثامك وجرائمك.

فهات يدك وعاهدني على أن تكون لي منذ اليوم كما كنت لي بالأمس، فقد كنا سعداء قبل أن نفترق، ثم افترقنا فشقينا، وها نحن أولاء قد التقينا، فلنعش في ظلال الفضيلة والشرف سعداء كما كنا.

ثم مددت يدي إليه فراعني أنه لم يحرك يده فقلت له: ما لك لا تمد يدك إلي؟ فاستعبر باكيا وقال: لأنني لا أحب أن أكون كاذبا ولا حانثا. قلت: وما يمنعك من الوفاء؟ قال: يمنعني منه أنني رجل شقي، لاحظ لي في سعادة السعداء، قلت: قد استطعت أن تكون شقيا، فلم لا تستطيع أن تكون سعيدا؟ قال: لأن السعادة سماء والشقاء أرض، والنزول إلى الأرض أسهل من الصعود إلى السماء، وقد زلت قدمي عن حافة الهوة فلا قدرة لي على الاستمساك حتى أبلغ قرارها، وشربت أول جرعة من جرعات الحياة المريرة، فلا بد لي أن أشربها حتى ثمالتها ولا شيء من الأشياء يستطيع أن يقف في سبيلي إلا شيء واحد فقط، وهو أن لا أكون قد شربت الكأس الأول قبل اليوم، وما دمت قد فعلت فلا حيلة لي، قلت: ليس بينك

وبين النزوع إلا عزمة صادقة تعزمها فإذا أنت من الناجين، قال: إن العزيمة أثر من آثار الإرادة، وقد أصبحت رجلاً مغلوباً على أمـــري لا إرادة لي ولا اختيار ، فدعني يا صديقي والقضاء يصـــنع بي مـــا يشاء، وابك صديقك القديم منذ اليوم إن كنت لا ترى بأســـاً في البكاء على الساقطين المذنبين.

ثم انفجر باكياً بصوت عالٍ، وتركني مكاني دون أن يحييني بكلمة، وخرج هائمًا على وجهه لا أعلم أين ذهب، فانصرفت لشأني وبين جنبي من الهم والكمد ما الله به عليم لم يستطع رئيس الديوان أن يتحمل نديمه بالأمس زمناً طويلاً فأقصاه عن مجلسه استثقالاً له ثم عزله عن وظيفته استنكاراً لعمله، و لم تذرف عينه دمعة واحدة على منظر صريعه الساقط بين يديه، و لم يستطع مالك البيت الجديد أن يمهل فيه المالك القديم أكثر من بضعة أشهر ثم طرده منه، فلجأ هو وزوجته وولداه إلى غرفة حقيرة في بيت قديم في زقاق مهجور، فأصبحت لا أراه بعد ذلك إلا ذاهبا إلى الحانة أو عائدا منها، فإن رأيته ذاهبا زويت وجهي عنه، أو عائدا دنوت منه، فمسحت عن وجهه ما لصق به من التراب، أو عن جبينه ما سال منه من الدم، ثم قدته إلى بيته.

وهكذا.. ما زالت الأيام والأعوام تأخذ من جسم الرجل ومن عقله حتى أصبح من يراه يرى ظلا من الظلال المتنقلة، أو حلما من الأحلام السارية، يمشي في طريقه مشية الذاهل المشدوه لا يكـــاد

يشعر بشيء مما حوله، ولا يتقي ما يتعرض سبيله حـــتى يدانيـــه، ويقف حينا بعد حين فيدور بعينه حول نفسه كأنما يفتش عن شيء أضاعه وليس في يده شيء يضيع، أو يقلب نظره في أثوابه ومـــا في أثوابه غير الرقاع والخروق، وينظر إلى كل وجه يقابله نظرة شزراء كأنما يستقبل عدوا بغيضا وليس له عدو ولا صديق، وربما تعلـــق بعض الصبيان بعاتقه فدفعهم عنه بيده دفعا لينا غير آبه ولا محتفل، كما يدفع النائم المستغرق عن عاتقه يد موقظه، حتى إذا خلا جوفه من الخمر وهدأت ثورتها في رأسه، انحدر إلى الحان فلا يزال يشرب ويتزايد حتى يعود إلى ما كان عليه.

ولم يزل هذا شأنه حتى حدثت منذ بضعة أشهر الحادثة الآتية: عجزت تلك الزوجة المسكينة أن تجد سبيلاً إلى القوت، وأبكاها أن ترى ولدها وابنتها باكين بين يديها تنطق دموعها بما يصمت عنـــه لسانها، فلم تر لها بدا من أن تركب تلك السبيل التي يركبها كـــل مضطر عديم فأرسلتهما خادمين في بعض البيوت يقتاتـــان فيهـــا ويقيتانها، فكانت لا تراهما إلا قليلا ولا ترى زوجها إلا في الليلـــة التي تغفل فيها عنه عيون الشرطة، وقلما تغفل عنـــه، فأصـــبحت وحيدة في غرفتها لا مؤنس لها، ولا معين إلا جارة عجوز تختلـــف إليها من حين إلى حين، فإذا فارقتها جارتها وخلت بنفسها ذكرت تلك الأيام السعيدة التي كانت تنقلب فيها في أعطاف العيش الناعم والنعمة السابغة بين زوج كريم وأولاد كالكواكب الزهر حســـنا وبهاء، ثم تذكر كيف أصبح السيد مســـودا، والمخـــدوم خادمـــا، والعزيز الكريم ذليلا مهينا، وكيف انتشر ذلك العقـــد اللؤلـــؤي

المنظوم الذي كان حلية بديعة في جيد الدهر، ثم استحال بعد انتشاره إلى حصيات منبوذات على سطح الغبراء تطؤها النعال وتدوســـها الحوافر والأقدام.

فتبكي بكاء الواله في إثر قوم ظاعنين حتى تتلـــف نفســـها أو تكاد، على أنها ما أضمرت قط في قلبها حقدا لذلك الإنسان الذي كان سببا في شقائها وشقاء وليديها، ولا حدثتها نفسها يوما مـــن الأيام بمغاضبته أو هجرانه؛ لأنها امرأة شريفة، والمرأة الشـــريفة لا تغدر بزوجها المنكوب، بل كانت تنظر إليه نظرة الأم الحنـــون إلى طفلها الصغير فترحمه وتعطف عليه وتسهر بجانبه إن كان مريضـــا، وتأسو جراحه إن عاد جريحا، وربما طرده الخمار في بعض لياليه من حانه حينما لا يجد معه ثمن الشراب فيعود إلى بيته ثـــائراً مهتاجـــاً يطلب الشراب طلباً شديداً، فلا تجد بدا من أن تعطيه نفقة طعامها أو تبتاع له من الخمر ما يسكن به نفسه رحمة به وإبقاء على تلـــك البقية من عقله.

وكأن القدر أراد أن يضع عليها ثقلا جديدا إضافة إلى ما على عاتقها المنهك بالأثقال، فقد شعرت في يوم مـــن أيامهـــا بنســـمة تتحرك في أحشائها فعلمت أنها حامل وأنها ستأتي إلى دار الشـــقاء بشقي جديد فهتفت صارخة: رحمتك اللهم فقد امتلأت الكـــأس حتى ما تسع قطرة واحدة. وما زالت تكابد من آلام الحمل ما يجب أن تكابده امرأة مريضة منكوبة حتى جاءت ساعة وضـــعها فلـــم يحضرها أحد إلا جارتها العجوز فأعانها الله على أمرها فوضعت ثم مرضت بعد ذلك بحمى النفاس مرضا شديدا فلم تجد طبيبا يتصدق

عليها بعلاجها؛ لأن البلد الذي لا يستحي أطباؤه أن يطالبوا أهل المريض بعد موته بأجرة علاجهم الذي قتله لا يمكن أن يوجد فيها طبيب محسن أو متصدق، فما زال الموت يدنو منها رويدا رويدا حتى أدركتها رحمة الله فوافاها أجلها في ساعة لا يوجد فيها بجانبها غير طفلتها الصغيرة عالقة بثديها.

في هذه الساعة دخل الرجل ثائرا مهتاجا يطلب الشراب ويفتش عن زوجته لتأتي له منه بما يريد، فدار بعينيه في أنحاء الغرفة حتى رآها ممدة على حصيرها، ورأى ابنتها تبكي بجانبها فظنها نائمة، فدنا منها ودفع الطفلة بعيدا عنها وأخذ يحركها تحريكاً شديداً فلم يشعر بحركة، فرابه الأمر وأحس برعدة تتمشى في أعضائه حتى أصابت قلبه، فبدأ صوابه يعود إليه شيئا فشيئا، فأكب عليها يحدق في وجهها تحديقا شديدا ويزحف نحوها رويدا رويدا حتى رأى شبح الموت يحدق إليه من عينيها الشاخصتين الجامدتين، فتراجع خوفا وذعرا فوطئ في تراجعه صدر ابنته فأنت أنة مؤلمة لم تتحرك بعدها حركة واحدة، فصرخ صرخة شديدة وقال واشقاءاه واشقاءاه؟ وخرج هائما على وجهه يعدو في الطرق ويضرب رأسه بالعمد والجدران، ويدفع كل ما يجد في طريقه من إنسان أو حيوان ويصيح: ابنتي! زوجتي، هلموا إلي؟ أدركوني! حتى أعيا فسقط على الأرض، وأخذ يفحص التراب برجليه ويئن أنين الذبيح والناس من حوله آسفون عليه، لا لأنهم يعرفونه بل لأنهم قرأوا في وجهه آيات شقائه.

فكانت تلك اللحظة القصيرة التي استفاق فيها من ذهوله

الطويل سببا في ضياع ما بقي من عقله.

وما هي إلا ساعة أو ساعتان حتى أصبح مقيدا ومغلولا في قاعة من قاعات البيمارستان (مستشفى الأمراض العقلية)، فوارحمتاه لـــه ولزوجته الشهيدة بإذن الله ولطفلته الصـــريعة ولأولاده المشـــردين البؤساء.

المصدر: من كتاب العبرات للمنفلوطي